

ليفيناس:

الأنثوي وفينومينولوجيا الإيروس

د. عبد القادر بودومة

استاد الفلسفة المعاصرة

جامعة تلمسان - الجزائر

ليفيناس: الفينومينولوجيا والإيتيقا:

يعتبر "ليفيناس" 1905-1995 (E) LIVINAS الممثل الوحيد للحركة الفينومولوجية بفرنسا. إذ كان أول من ادخلها إلى الجامعات الفرنسية، ويمكن فلاسفتها أمثال: سارتر (ج) Sartre (J-P) وميرلوبونتي (م) Merleau - Ponty (M) من الاضطلاع على فلسفة مؤسسها هوسيرل (1) (E) Husserl حيث تأثر ليفيناس شديد التأثير بفلسفة هذا الأخير. بالإضافة إلى الحضور البارز لفلسفة هيدغر م (1889 - 1976) (M) Heidegger لكن لم يكن حاجسه من وراء هذا التأثير البالغ تكرارا لفلسفة هذين العلمين وإنما توجه منذ بدء التواصل معهما بالقول بضرورة نقدهما. ومن تم تمكن ليفيناس من التأسيس لفلسفته المميزة لمساره الفكري، فكان يركز على تعميق تحليل دلالة العلاقة بالإنسان الآخر L'autre homme، ورأى في هذا التوجه المهمة الأساسية لكل تفلسف على الإطلاق. لم يكن بجمه إقامة النظريات الفلسفية للمعرفة وإنما سعى جاهدا لأجل فهم العلاقة مع الآخر باعتبارها العلاقة الأصلية التي تقوم على أساسها كل العلاقات مع الوجود. المهم أن نكون قادرين على احترام غيرية الآخر، والكف عن احتزاله، وتبسيط دلالاته. وذلك بإفراغ محتواه داخل هوية الأنسا. أي داخل المفاهيم وأنظمة المقولات التي كثيرا ما رأت فيها الفلسفات التقليدية

مهمتها الأساسية، معتقدة بأنها تمكنت من خلالها فهم علاقتها بالعالم فهما شاملا.

إن الذي يبدو أكثر أهمية بالنسبة إلى ليفيناس هو الانفتاح على علاقة التداوت **intersubjectivité** والعلاقة بالإنسان الآخر، حيث تتجلى الغيرية عبر وجهيهما **visage** ومن تم تمثلت الإتيقا **éthique** منذ أعماله المتقدمة باعتبارها الفلسفة الأولى. هنا تكمن المهمة الأساسية للفلسفة حيث ستبدأ مع ليفيناس بانجاز تمرين فلسفي مغاير غير ذلك الذي اعتادت عليه الفلسفات التقليدية منذ اللحظة الإغريقية إلى غاية هيدغر. ففي نقده للشمولي **totalité** المفهوم المركزي القائم عليه عمله الرئيسي "الشمولي واللاهائي" **totalité et infini** الصادر سنة 1961 ثمة إحالة إلى نقد شامل لتاريخ الفلسفة، تاريخ بإمكان تأويله إلى كمحاولة تركيب شمولي، كتبسيط واختزال لكل تجربة ولكل ما هو مدرك كشمولية حيث يلامس الوعي كلية العالم، ولا يترك من وراءه شيئا مع سعيها لامتنصاع كل ما يتواجد خارجا، لتغدو تفكيراً مطلقاً. إن وعي الذات هو في الوقت نفسه وعي للكل، لكن داخل هذا التوجه كان يوجد بعض الاحتجاجات على هكذا رؤية في عمق تاريخ الفلسفة بحيث يمكننا الإشارة إلى أن المسيرة الكبرى للفلسفة الغربية انتهت في الواقع إلى الفلسفة الهيغلية، التي تظهر في حد ذاتها كنهاية واكتمال للفلسفة عيناها. إذا تحولنا بداخل الحضارة الغربية يقول ليفيناس: "فانه سنجد كل من الروحاني والعقلاني يتواجدان باستمرار داخل حركة المعرفة وبإمكاننا رد مثل هذا الحنين القائم بينهما إلى نزوعهما الشمولي، وكاننا أمام شوق نحو امتلاكهما على أساس انه ثم ضياع انعكس على رؤيتنا إلى الفكر عموماً. فتم النظر إليه باعتباره خطيئة الروح في حين كانت الرؤية البانورامية للواقع هي تمثل الحقيقة".¹ هذا ما جعل ليفيناس يتوجه نحو القول أن التجربة المتعذر اختزالها مقيمة هناك **au-delà** بعيداً، وليس موجودة أبداً في التركيب المنجز من طرف الفكر. وإنما يحدث لها التواجد في الوجه لوجه **face a face** بين البشر وذلك داخل الاجتماعية **socialité** في دلالتها الأخلاقية. لكن لا يجب حسب ليفيناس فهم هذه الأخلاقية

بأنها جاءت لتعكس الطبقة الثانية أي تأتي بعد التأمل المجرد، وتحت عملية التنظير. للأخلاقية **moralité** استقلاليتها وألوياتها لأنها الفلسفة الأولى، مجاوزة بذلك كل تفكير فلسفي قام يفلسف قضايا مرتبطة بالوجود. إن المتعذر عن التركيب أو لنقل اللا تركيب ينعكس بالضرورة على العلاقة القائمة بين البشر، فالوحدة الحقيقية أو الجمع الحق لن يكون جمعا تركيبيا، وإنما هو جمع ووجه لوجه.

لقد سعى ليفيناس من أجل إظهار فلسفته المتميزة باندفاعه الجدري نحو نقد الفينومينولوجيا الهوسرلية من جهة، والانطولوجية الهيدغرية من جهة أخرى، ناظرا إليهما باعتبارهما من الفلسفات التي كرس الخط الميتافيزيقي التقليدي. لأن فلسفة المعلمين (هوسرل وهيدغر) لم تخلص الآخر من تبعيته للـ "عينه". ويعتبر المفهوم الشمولي من المفاهيم الدالة وبقوة على مثل هكذا تورط: إن مشروع الفلسفة الغربية يقول ليفيناس هو مشروع خاص بالرد إلى الشيء نفسه، لأنها كانت تصر دائما على فهم كل شيء من خلال وصفه وهو في علاقة مع كل ذاتي الوضوح، سواء كان صورا أفلاطونية، أو جواهر أرسطية أو عقل الهي لفلسفة العصور الوسطى أو مطلق هيغل أو مونادا ليتنر.

أقر الفلاسفة بمكانة الغيرية **altérité** بأنها تكمن خارج الكل -أي الشمولي- إلا أنهم كانوا يلحقون فهمها من خلال العلاقة مع الكل. إن مثل أفلاطون لها علاقة وثيقة بالإشكال وتمكين لمادة أرسطو الأولية. وتتطلب الكائنات المتناهية خالقا (إله)، وتفهم نقائص هيغل دائما داخل بحث تركيبى لاحق.¹ وعليه لا يمكننا والأمر على هذا الوضع الجزم مع الفلسفات التقليدية بالقدرة على إمكان وجود شيء ما قادر على استيعاب وبصورة فعلية كل الواقع وعلى الرغم من كون ليفيناس بأخذ بفينومينولوجيا هوسرل ممثلة في منهجا، إلا أنه يرفض الأخذ بالرد **réduction** خاصة لحظة توجهه نحو الكشف عم يمكنه من استيعاب الآخر.

سيكون هذا الأخير مدركا حتى وإن كانت الحقيقة منظورا إليها باعتبارها ذلك المتعذر عن التناهي. لكن على الرغم من ذلك سيبقى وعدا يترقب بلوغ

1 (هينغ (ج) ليفيناس الكلي والآخر، ترجمة بدر مصطفى مجلة أوراق الفلسفية العدد 13- 2004 ص 384.

حقيقة أكثر اكتمالا وأكثر تطابقا، إذ مما لا شك فيه فإن الكائن النهائي الذي نحن عليه لا يمكنه في نهاية المطاف إكمال مهمة المعرفة، في حين تتطلب فكرة اللاهائي حسب ليفيناس أن يكون الفكر لا عادل لان العلاقة مع اللاهائي لا تمثل المعرفة وإنما تعكس الرغبة، لقد حاولت يقول ليفيناس: "وصف الاختلاف الكامل بين الرغبة والحاجة وهذا بالنظر إلى الرغبة باعتبارها الحالة التي من الصعب أن تنتهي إلى الإشباع، وإنما تتغذى بكيفية أخرى من عوزها"¹.

من هذا المنطلق يمكننا القول أن الفلسفة لدى ليفيناس جديرة بان يطلق عليها اسم الفلسفة السائرة **la Philosophie en match** إذ يبدو من الصعب التأكيد على الانتماء المطلق للفيناس إلى الفينومولوجيا على الرغم من وجود قراءات عديدة تؤكد ذلك. إلا أن الاتجاه المهيمن داخل فلسفته يختلف في الواقع كل الاختلاف عن الحركة الهوسرلية، بالإضافة إلى ذلك يعارض ليفيناس بصراحة هايدغر وانطولوجيته الأساسية، ونجدده في الوقت ذاته يضع مسافة بينه وبين كل من سارتر وميرلوبونتي.

نحن نعلم أن لفضل يرجع إلى هوسيرل في إعلانه عن ميلاد الفينومينولوجيا (1900-1901) وربما سيكون من موقع تمييز وجهة وأصالة الفلسفة الليفيناسية القول أن هوسيرل وهيدغر ينخرطان ضمن ما ينعته ميشال هنري **Michel Henry** بالفينومينولوجيا التاريخية **Ph. Historique**. ويعتبر هوسيرل الفيلسوف الذي أثر بصورة عميقة في ليفيناس إذ درس هذا الأخير ولمدة سنة بجامعة فرايبورغ. لكنه لم يشارك إلا في حلقة درس واحدة التي كانت تحت إشراف هوسيرل، فعلى الرغم من قلة متابعة ليفيناس لدروس هذا الأخير إلا أنه احتل المكانة الرفيعة لديه، أثر لم يمنع ليفيناس من التوجه نحو نقد الفلسفة أستاذه، حيث أعلن من البداية عن وجود بعض التحفظات التي أشار إليها في أطروحته الموسومة بـ نظرية الحدس في فلسفة هوسيرل. التي ناقشها سنة 1928 بجامعة ستراسبورغ، ومن أهم الاعتبارات النقدية المعتملة من طرف ليفيناس نجد على سبيل المثال لا الحصر²

1 Levinas (E): Ibid. p...

2 Strasse (S): Anti phénoménologique et phénoménologie dans la philosophie d'Emmanuel Levinas in revue philosophie de Louvain tome 75. N° 25. 1977

1. الاعتبار الخاص بمثالية النظرية المهيمنة على فكر هوسيرل مثالية فو-زمانية *supra temporelle* التي اعتقد بصلاحياتها الأبدية، وتظهر من خلالها الفلسفة مستقلة، بعيدة كل البعد عن وضعية الإنسان التاريخية. ومنه سيكون هوسيرل قد أنجز نوع من التفريق والقطع مع الوجود العيني للإنسان مع زمانه وحياته الاجتماعية وكان لحظتها النموذج الهندسي المهيمن على مثل هكذا رؤية من خلال الكيفية التي ندرك بواسطتها الحقيقة وتعود تحديدا إلى أفلاطون وإلى العقلانيون.

2. الاعتبار الذي يضع النقد موضعا آخر بحيث يحيلنا إلى تفكير وعقلانية الرد الفينومولوجي الترنسندنتالي، وتمثل عقلانية هذا الأخير النقطة الثانية التي مكنت ليفينا صنت التوجه بالنقد إلى هوسيرل. إذ من خلال هذه الميزة لا نتمكن من الوصول إلى تغيير وبصورة جذرية موقعنا تجاه الواقع وتجاه العالم عموما. وبموجب أسبقية وألوية النظرية لم يتمكن هوسيرل من طرح السؤال معرفة كيفية التي نجد من خلالها حيادية حياتنا. "لحظتها ستعرف الفلسفة بدؤها مع الرد باعتباره الفعل الذي نرى من خلاله حياتنا في كل خصوصيتها العينية وذلك بداخل المكان الذي لا تتواجد فيه، هنا يكمن امتياز البحوث المنطقية الهوسيرلية لكن إذا نظرنا بعمق إلى هذه التأكيدات المنجزة داخل فلسفة هوسيرل والتي ترى في الرد السبيل الوحيد الذي يمنح لنا إمكان التوغل إلى الفينومولوجيا فان مثل هكذا وجهة تحتاج هي الأخرى إلى إمعان النظر الفكري¹.

إن الفينومولوجيا هي أكثر من فلسفة في الوعي، أو في المعرفة فهي لم تعرف بدؤها إلا عندما عصفت الأزمة على العلوم وعلى الفلسفات الأوروبية. لهذا سيجد المشروع الهوسيرلي يضع نفسه موضع المعالج اللازمة، أزمة سادت من 1840 إلى 1935 حيث كان من غير المعقول لحظتها الوقوف موقفا سلبيا تجاهها. فراح جيل بأكمله من الفلاسفة يسعون من أجل البحث عن الحلول المناسبة. منطلقهم في ذلك مسلمة مفادها أن أزمة هي قبل كل شيء أزمة ميتودولوجية. أزمة مرتبطة

على الخصوص. بمناهج العلوم، فنظرة بسيطة على المناخ العلمي والثقافي اللذان عاصرهما هوسيرل يتبين لنا انه لم يكن مترددا في تقديم أبحاثه المنطقية في مشروعه التمهيدي والذي كتبه سنة 1913 بأنها العمل الفاتحة **œuvre percée**¹.

إن قراءة متمعنة لنصوص ليفيناس الأولى التي جسدها في أطروحته: نظرية الحدس في فلسفة هوسيرل (1928) تظهر أن اكتشاف فينومولوجيا قصدية الوعي سمحت بمنح الامتياز للممارسة على النظرية، بالكيفية التي يصير من خلالها الواقع معطي للذات العارفة. لكن معطي مباشرة من دون وسائط مع ضمان الأرضية الموضوعية المنخرطة داخل الوجداني **l'effective**. فالنظرة العامة التي يوجهها ليفيناس إلى الفينومولوجية تبرز من الوهلة الأولى أن المقاربة الهوسرلية تبدو متمكنة من معرفة وضعية العيني. هذا ما يقوي مجددا الفكرة القائلة بعدم انفصال الفكر عن الحياة. وتلعب الوظيفة الإحالية إلى الحياة دورا أساسيا في النطاق الذي يغدو فيه كل إتصال بموضوع متمثل **représentant** يرتبط بلزوم هذا الأخير أي التمثل، وثمة إلزامية الظهور أمام الوعي. طبعاً لا ينطبق هذا المبدأ الفينومولوجي على إنعطاء المواضيع الحسية وذلك من خلال الأفعال الإدراكية والحسية فحسب وإنما تشمل حتى الامتدادات لقصود الدلالة المتوجهة أو المحمولة على المواضيع التخيلية².

إن قصود الفكر هي الأخرى بحاجة إلى التجربة كي تتمكن من تمرير الوقائع المنتظرة نحو البديهية، ومن ثمة تجدد تجربة المعيش أهميتها وضرورتها، فمن دونها تصير كل دلالة ساذجة وغير واضحة. إلى درجة أنه بإمكاننا القول بعدم جدوى البحث عن العنصر الثالث الذي بإمكانه لعب دور الوسيط بين الفكر والعالم³. هذا ما عجل إعلان ليفيناس عن ضرورة تلقيه الفينومولوجيا.

وبعد اكتشاف القصدية سار ليفيناس في بداية الأمر على خطى هوسيرل إلى غاية إقدامه على نشر عمله: بخلاف الآخر أو بعيدا عن الماهية. الفترة التي منحت

1 Voir Husserl (E): Articles sur la logique (1890-1913) traduit par: English (J) Paris PUF 1995 p. 373-375.

2 Voir Husserl (E): les recherches logiques

3 Bustan (S): Levinas et Husserl; dépasser l'intellectualisme philosophique; revue international de la philosophie 2006. p. 37 n° 235.

له امتياز ما هو عملي تطبيقي على ما هو نظري تأملي. فبفضل القصيدة لم يعد مجديا المرور على امتحان نقد المعرفة للتمكن من تحديد الموضوع بما انه تمت فعالية التنسيق القائم بين الفعل القصدي والحدس والتي تقوم بتحديد الموضوع بصورة مباشرة.

لكن على الرغم من ذلك نجد ليفيناس على غرار باقي الفينومولوجيين يوجه اللوم إلى هوسيرل لعدم قدرة فينومولوجيته الذهاب ابعدا في بحوثه الفلسفية حول الحياة، ثمة نقص استشره ليفيناس وبالأخص نقص في التعامل مع قضايا تجربة الحياة والمعيش كما أن هذه التجربة بقيت سجيئة أسبقية النظري والذي حال بدوره دون السماح باكتشاف الواقع مثلما هو قائما في غياب الافتراضات. هذا الموقف من هوسيرل منح للفيناس إمكانية شق طريقه الخاص داخل الفينومولوجيا حيث سار به من فلسفة لا تزال تحتمي بما هو تأملي ونظري (الفلسفة النظرية) **théoriste** أو عقلانية **intellectuelle** إلى فلسفة تسمح بإفلاق وإنجاس البعد الإيتيقي. انطلاقا من هذا الانتقال سينجز ليفيناس نقده للهوسرلية باعتبارها أسست الفينومولوجيا عقلانية سحنت ذاتها بداخل عالم نظري محاولة منها تصفية الواقع بواسطة التأمل والنظرية¹.

لكن اعتقد انه من الضروري الإشارة إلى أن موقف ليفيناس من الميزة العقلانية للفينومولوجية الهوسرلية لم تكن ابدا بدافع رفضها وإنما يجعل من الموقف العقلاني، الطريق الذي يمنح لنا شيء من الاستقلالية ومن حرية فكرية على الرغم من إقرارنا بنقصه من خلال التعامل الضعيف مع القضايا العملية التي تلزمنا بها تجربة الحياة. وعليه فان لا مفر من الموقف النظري باعتباره الأساسي نفسه الذي تقوم عليه العدالة فلكي نكون منصفون يجب أن تحدث موازنة بين الحكم والأفراد هذا ما يقتضي استدعاء الفكرة والمعرفتنا تم لإحساسنا إلى يتبقى بالمسؤولية².

لم تكن مهمة ليفيناس إقامة إيتيقا، وإنما العمل على البحث عن المعنى. ففي واقع الأمر لا يعتقد بوجود فلسفة تكون مبرجة هو في نظر ليفيناس هو الأول الذي وضع فكرة برنامج للفلسفة مما لا شك فيه بإمكاننا إقامة انطلاقا من فكرة الوجه.

Bustan (S): Ibid. p. 39 1

Levinas (E) le temps et l'autre Paris PUF 1979. p. 42. 2

لان هذا الأخير يقطع بصورة جذرية مع التوجهات الشمولية للفلسفة الحديثة، والتقليدية.

لقد أدرك ليفيناس مثلما اشرنا نقص الفينومولوجيا الهوسرلية التي كانت تعاني منه. إذ حدث أن أغفلت بعض القضايا التي تم إقصاؤها من دائرة التفكير داخل الفلسفة لتقليدية فهي أي الفينومولوجيا الهوسرلية عندما تأسست من منطلق مثالي ترنسندنالي وكرست بالإضافة إلى ذلك ال "انانة" Solipsisme تكون بهذا التوجه قد ساهمت في الإبقاء على مفاهيم مثل الآخر الجسد، الرغبة، الوجدانية والأنثوي... إلخ. تنتظر اللحظة المواتية للبدء والتفكير حولها. مما منح بالفعل للفيناص منفذا لتحاليل أصيلة هنا بالذات تكمن وجهة المشروع الليفيناسي والمتمثل تحديدا في تطويره، وتفعيله لسؤال الآخر، جاعلا منه سؤالا مركزيا لكونه يحمل القدرة على توسيع العالم.

تكمن إذن مهمة الفلسفة لدى ليفيناس في سعيها لإظهار التوجه الحقيقي للإنسان نحو العالم، المرتبط أساسا بمبدأ الحاجة ومن تم يتمكن من تأسيس إقامته وعلاقته بالعالم والتي تمكنه بدورها من بعد الجوانية التي يمنح له إمكان التصرف والسلوك، مانحا فسحة للآخر ذلك لأنه وفي نظره كل استعمال العالم يتواجد موجهها نحو الآخر. فإقامتنا فيه هي في عمومها إقامة لأجل الآخر لا غير. بما أننا مسئولون عنه مسؤولية مطلقة، مسؤولية تعرف وجودها قبل الغير وقبل المعرفة وليس معها. وعليه سأكون في اعتقاد ليفيناس مدعوا باستمرار إلى ضرورة فتح مسكني وإقامتي لأجله¹. فأنا دائم الترقب والانتظار، أنتظر حلوله بيننا، وقدمه. هذه الوضعية هي التي تدشن حقيقة وجودي في العالم.

لكن إقامتنا فيه لا يجب أيدا أن تكون مرتبطة كما جس المكوث والاستقرار وإنما ينبغي أن تكون دائما محكومة بها جس الانسحاب والمغادرة فالآخر لا وطن له لا هوية تحدده انه خارج كل تعيين على الرغم من انه يشكل هو الآخر أنا Moi لكنه أنا من دون هوية هذا ما جعل ليفيناس يتجه إلى القول انه ليس يوجد جهد من دون آخر وربما سيكون هذا الآخر مدركا بفضل جسده ومن تم سنتكون

1 zelinski Agata. Lecture de merleau penty et Levinas ; le corps, le monde, l'autre ; paris PUF 2002. p. 141

فلسفة ليفيناس تفكير الظاهرانية، للتداوب مدركة انطلاق فقط من جهد متموضع situé متموضع على وجه الخصوص جنسيا ربما كان هذا الأمر منفذا للتوغل إلى البحث في السؤال الأنثوي لدى ليفيناس لأنه (آي الأنثوي) سيكون عنصر محاورته تجديد السؤال العام الخاص ببرانية الآخر **l'extériorité de l'autre** في المريئة، وكأن فكرة الآخر المحض ستكون مجرد عبث من دون ظاهرة¹

الأنثوي وإيتيقا الرغبة

إذ سيغدو معه لدى ليفيناس احد أهم الصور الجذرية لغيرية الآخر le féminin يعتبر الأنثوي الآخر آخر. العبارة التي صيرت المشروع الليفيناسي الفلسفي أصيلا، حيث سيقم فلسفته التي ترغب في أن تكون حكمة المحبة، وليست محبة الحكمة. الحكمة في خدمة المحبة، وليس العكس ففي الخطاب الايروسي الذي افرد له ليفيناس العديد من أعماله وكان أهمها "الشمولي واللاهائي"، سوف لن نحب موضوعا متماثلا أمامنا، وإنما سنكون أمام محبة وفقط: "فأنا المحبة قبل المحبة وبقينيا أن يكون الأنا منضويا في ذكورة الأنا التي يتم بفضلها وصف الايروس. لكن سيضطّر وهو في أوج المحبة التضحية وبفحولته². فأن نحب هذا يعني ان نحب المحبة عينها. المحبة التي يحملها إلى الحبيب، إذ انطلاقا من المحبة وليس انطلاقا من الأنا سيكون ممكنا التأكيد انه وداخل الايروس يغدو: الـ "لأجل الآخر باعتباره الأكثر إحالة من "أجل الذات" باختصار يمكننا القول أن لأجل آخر هو لأجلها.

إن أسبقية العلاقة مع الآخر هي بمثابة الموضوع الأساسي الذي إنفتح عليه ليفيناس. فحكمة المحبة هي بمثابة القضية التعريفية التي تعبر عن وجود اقتضاء رئيسي ووجيه. يتمثل تحديدا في أن الفلسفة إذا كانت تسعى من أجل فهم إنسانية الإنسان، عليها أن تهب نفسها ومن دون حياء لخدمة اللغز، الذي يعكسه الآخر.

1 Duboste Mathieu: Féminin et phénoménalité selon Emmanuelle Levinas
revue les études philosophiques 2006. p. 37 n° 334

2 Levinas (E): Totalité et infini. Essai sur l'extériorité, Nijhoff la Haye
1961. p. 248

الذي يرفض القبول بشيء آخر والاكتفاء به إذا لم يحضر كرم ال "عينه" لأجل الآخر. ذلك لأن الامتنان هو بمثابة عودة الحركة مجددا إلى أصلها¹. ففي عمله الشمولي واللاهائي، العمل الذي أحدث ليفيناس منعطفه الأساسي القائم على وجه الخصوص بمغادرة أرض الفينومولوجيا التاريخية. حيث يظهر الأنثوي لأول مرة كتحفظ على الحضور ففي الأنثوي يحدث نوع من الاكتمال وإنجاز التفريق كسكنى. ليظهر فيما بعد داخل العلاقة الايروتيكية. ومن ثمة سيتخذ الأنثوي لنفسه زمنين: زمن الإقامة والسكنى وزمن الرغبة أو الايروس. إذ تجد فينومولوجيا هذا الأخير نفسها ممتزجة مع الأنثوي. ليحدث من خلاله ليفيناس قطعا مع التقليد الذي يضع الفرد سببا وأساسا للايروس، فالتحفظ على الحضور يضم كل إمكانيات العلاقة الترندنتالية مع الآخر. إن الأنثوي باعتباره التباسا لن يكون إلا اختراقا مبتعدا عن الوجه والذي يمثله في شخصه داخل التعبير. الأنثوي بإفراطه في الرفع من وزن ماديته الفائقة يحدث تشويها للوجه.

طبعاً سوف لن يبقى الأنثوي مدركا دائما انطلاقاً من إحالته إلى الوجه، ذلك. لأن الآخر يحمل دائماً المفاجئة إذ سيكون ممكناً تفكير الترندنتالية بكيفية جذرية داخل الايروس. إن ليفيناس لم ينجز تأويلاً للوغوس باعتباره مجرد شهوة ولذة، لكونه لا يعكس الرغبة لحظتها سيمارس الآخر من خلال الإيروس انفلاته وانسحابه الدائمين، مقاوما كل رغبة في التملك أو كل وعي مثل هذا التعالي يجعله يتميز تحديدا كآخر، كغيرية. وسوف لن تعرف اكتمالها إلا بواسطة الجسد وآلياته².

إن الآخر هنا وباعتباره آخر لن يكون موضوعاً بحيث نصيره ملكاً لنا أو ذلك الذي قد يغدو نحن nous. وإنما يفضل الانسحاب إلى حيث الالتباس والغموض، رافضاً التوغل بداخل عالم النور لأنه عالم حكمته وهيمنة عليه الثنائيات الانطولوجية. الأهم في الأنثوي لا يكمن في مدى امتناعه عن الفهم.

1 Poirié (J-F): Emmanuel Levinas, essais et entretiens, Paris Acte de sud 1996 p. 58

2 Levinas (E): Carnet de captivité, écrit sur la captivité, œuvre I, Grasset-IMEC. 2009 p. 117.

وإنما باعتبار غلط وجوده يعتمد على التعرية أمام النور. فالأنثوي يقول ليفيناس حدث في الوجود مختلف تماما عن ذلك الخاص بالترسندنتالية المكانية، أو الخاص بالتعبيرية للذات كثيرا ما يتجهان صوب النور. إن الأنثوي فرار من النور. والكيفية الوحيدة التي من خلالها سيعرف الأنثوي وجوده هو قبوله بالتخفي والتستر "إن غيرية الأنثوي لا تعتمد أبدا على مجرد برانية الموضوع. ذلك لأنها لا تعرف تمامها ولا اكتمالها بفضل تعارض الإرادات، وإنما تعتمد لأجل ذلك على الانسحاب بعيدا حيث ألهناك. إنها حركة معارضة لحركة الوعي إذ كثيرا ما تفضل هذه الأخيرة المكوث والاستقرار في ألهنا حيث النور. لكن انسحابها لا يعني أبدا إقامتها أو تواجدها في اللاوعي أو في أل "فو- وعي" ولا أرى يتابع ليفيناس: إمكان الآخر إلا في منحه ميزة اللغز ¹ *mystère*. فقط عندما نحاول إظهار ما يختلف حوله الإيروس من رغبة في التملك وميلا زائدا نحو السلطة سيكون التواصل لحظتها مع الإيروس ممكنا، ذلك لأنه لن يكون أبدا صراعا، ولا صداما ولا معرفة وإنما يجب الاعتراف بمكانته الاستثنائية بين العلاقات. فهو يمثل العلاقة مع الغير مع اللغز أي مع المستقبل مع الطارئ. ذلك الذي لن يكون أبدا متواجدا في العالم حينما يكون كل شيء قائما في الهنا. إنها القرابة *filialité* إنها الآخر. ولن تكون العلاقة مع الآخر بدورها محكومة هي الأخرى بالمعرفي بحيث تتمكن من تحقيق بصورة أصيلة انسحابا من الوجود. يرى ليفيناس أنها أكثر إلغازا، فهي تعكس العلاقة مع الآخر عندما يكون هذا الأخير وبصورة جذرية آخر. أي أنها لا يحصل لها التواجد إلا لحظة تجدر الآخر وحيث يكون بطريقة ما مجرد الأنا **.Moi**

وعليه يمكننا القول أن القرابة هي آخر -أنا **P'autre le moi** فالابن يكون دائما بمثابة التعدد المكاني لأبيه. الإمكانيات التي تبدو مستحيلة بالنسبة إلى الأب. فالأنثوي هو قبل كل شيء تعدد في الأوجه أوجه قادرة على أن تركز بين الجوانب الأساسية للظاهراتية، ممثلة في الالتباس، الغموض والالغازية وتلميح إلى الآخر بداخل "عينه". يجعل إذن ليفيناس من الأنثوي وجهها للغيرية بامتياز، المناسبة إلى جانب وجه اللغة والطفل، فانطلاقا من الجسد وبواسطة جسدها سيكون الآخر

1 Levinas (e): temps et l'autre op cit, p. 78-79-81.

متلقيا. بمعنى آخر يمكن القول أن كل علاقة مع الآخر مؤصلة جنسيا¹ وعليه سوف يتعذر علينا انجاز أسئلة حول الأنثوي إلا إذا قمنا بنقله وحمله إلى حيث فكر الظاهرانية عموما، ومن ثم فإن الاختلاف الجنسي يؤسس بدوره عنصرا مناسبا للتفكير الليفيناسي والذي يسمح بمعاودة طرح سؤال التجلي واللاتجلي.

غالبا ما تم النظر فلسفيا إلى المرأة **femme** من موقع سلبي *passivité* هذا ما نجده مثلا عند أرسطو عندما حددها بأنها تعكس السطحية والسذاجة *ingénuité*. لكن الملفت للانتباه أننا وتحت ضغط التحولات السوسيو تاريخية الكبرى المميزة للقرن السابق حدث نوع من الانفتاح على معاودة التفكير وبكيفية مختلفة العديد من القضايا بشيء من العمق والأصالة. فعندما توجه ليفيناس نحو تفكير الأنثوي انطلاقا من نموذج العلاقة الايروتيكية كان هدفه من وراء ذلك القيام بتحديد دلالة الأنثوي بصورة ايتيقية. فالمرأة لدى ليفيناس هي موجود يرغب فيه الرجل، والذي كلما اقترب منه ابتعد وفر، مفضلا الإقامة حيث المسافة. من ثمة ستكون الرغبة في المرأة رغبة مؤجلة الإشباع والتحقق. وهذا ما يعكس بالضبط انطولوجيتها. أنها الثراء والعوز في أن معا.

لو حصل أن تحققت الرغبة، ووجدت اكتمالها وتجسيدها في المتعة، فانه سيصبح الأنا أنانيا من دون إحالة إلى الآخر وسيكون وحيدا من دون وحدة **solitude**. في حين لا تعرف الرغبة المصير ذاته لأنها حركة نحو الآخر وليست حركة نحو الانعزال والابتعاد والفرار منه. الأمر لا يتعلق باقتضاء مغادرة إقامته، لكن يمكننا التساؤل عن السبب الذي جعل ليفيناس يكتب الرغبة *désir* بالحرف البارز "D". أن الرغبة التي يقصدها ليفيناس هي رغبة ميتافيزيقية رغبة لا مرئية، قائمة بعيدة عم نرغب فيه أو نود نحققه.. رغبة لا تغلق الرغبة الميتافيزيقية، وإنما تحضر بداخلها. هكذا تبدو إذا رغبة متعذرة الإشباع **d. inassouvable**.²

المرأة لدى ليفيناس موجود متعدد الأشكال **polymorphe**. لم يجد في تعدده هذا ما يمنعه من الظفر ببعض أبعادها جاعلا منها موضوعا للتفكير، فبقدر ما تكون العشيقة **amante** تكون بالقدر نفسه الغاوية **tentatrice**. فهي انفتاح جذري

1 Dubost (M): Op.cit. p. 319.

2 Poiré (J-F: Emmanuelle Levinas, Ibid. p. 7

على الغيرية، انفتاح خفي، وسري. ثم هي أيضا انفتاح صريح على المستقبل لكنها بموازاة ذلك هي وجه بلا تعبير، بلا ملامح، وجه لا مادي. هذا ما يدعو باستمرار إلى احترامها المرأة من هذا المنطلق هي نموذج الحساسية السلبية، صورة الأمومة، لكنها أيضا صورة المكيدة والإعجاب والإغراء العشقي¹.

لا تعرف الغيرية الايروتيكية انغلاقا، ولن تكون بالنسبة إلى الموجود الذكري إلا الآخر. لأنها من طبيعة مختلفة عن طبيعته. ففي العلاقة الايروتيكية لا يرتبط الأمر أبدا بأخر يضاف إلى آخر، وإنما هي غيرية مضافة إلى العلاقة الايروتيكية، إذ عندما يحجب الأنثوي جسده يغدو رائيا ومرثيا في الآن معا. ولا يمكن اكتشاف جسده إلا عبر الكيفية التي يكتب ويرسم حجه. وحده الأنثوي بإمكانه منحنا بوعي فرصة رؤية جسده ويمنعنا عنه في أن معا. إن الجسد الأنثوي رمز فائق، حيث يوجد العديد من الطرق التي تمارس من خلالها الحجب، يغدو لحظتها تجليه من لا تجليه. من البداية نجد المرأة تعلن عن نفسها بأنها موجود مختلف مغاير لا يفضل الإقامة حيث المطابقة والهوية، وتشق باستمرار ممرات سيرها المحايث لما هو ترنسندنتالي، وذلك من خلال عناصر لاواعية ولا واقعية إنما تنتسب إلى الواقع من موقع استعار، هذا ما أهلها إلى نسج غيرية أنثوية *altérité féminine*، غيرية جذرية، تتكلم وكلامها لغة إنسية **Humain** صوت ينكتب، يرفض حمل عنفه وتوحشه لأنها التوحش عينه.

يعكس الأنثوي الغيرية الجذرية التي أقدم ليفيناس على ذكرها في عمله الصادر سنة 1947 بعنوان من الوجود إلى الموجود حيث سيقم الايروس نموذج اللقاء بالآخر كأخر. فإذا كان هذا الأخير هو قبل كل شيء أنثوي فالأن العملية الايروتيكية تظهر وفق مزيج من التقارب والمسافة. المرأة حسب ليفيناس: هي وبصورة محددة العشيقة، إنما الصورة الأولى للغيرية.

من هذا المنطلق يمكننا القول أنه بقدر ما تعكس العلاقة الايروتيكية لحظة الغبطة تعكس في الوقت ذاته لحظة الخيبة. فهي غبطة لأنها تجد بداخلها المتعة والشهوة، ولأنها ترسم في الأفق علاقة مع الاختلاف. وهي خيبة لأن تداخل الآفاق

يظهر مستحيلا ومتعذر من فرط الرغبة فيها"¹. الأنثوي هو الصورة العينية والحسية للغيرية. يتعلق الأمر هنا بتحليل وضعيات ومواقف عينية، حيث تصير الغيرية أكثر وضوحا مما هي عليه في العلاقة الاجتماعية. إذ نجدها تحافظ على بقائها غامضة ومغلق عليها، هذا يعني انه تمت غيريات تكون أكثر أو أقل حسية. وسيغدو الأنثوي أكثر بروزا، إنه الآخر الذي أشعر وأحسه به في العلاقة الايروتيكية كأخر، الذي يحمل افتراضيا الطفولة. وعليه فإن الأنثوي هو هذا الآخر باعتباره نموذجا للغيرية، لكونها صارت وفي أحسن الحالات مدركة. لكن يبدو وضروريا القول هنا أننا أمام حساسية تفضل الانفلات والانسحاب من النور، أو من كل ما يمكن أن يحملها ويسير بها إلى الـ "عينه" ونحو الذات. ومن ثم سيكون الأمر لدى ليفيناس مرتبط باقتضاء إيجاد نموذج من الأثر قادر على تحديد النمذجة الحسية باعتباره متعذر عن التحديد.

يفضل ليفيناس إنهاء عمله "الشمولي واللاهائي" بالإعلان انه سيكون ممكنا وعبر الزمان: مغادرة الفضاء النوثيكي الإغريقي، فإذا صار الزمان مؤسسا للكائن، فإن المعرفة الشاملة ستجعل منه متعذر الإمكان. من نتائج جعل المعرفة نسبية بحيث سيغدو لا-ممكنا الجدل على النمط الهيغلي. وبالتالي يتعين الزمان لدى ليفيناس انطلاقا من الجنسية **sexualité** لأنها تمكنت من الانفلات والخروج من الزمان المباشر، مفضلة الانفتاح على الزمان المتعدد. ومن ثم توجه نحو انجاز اللاهائي، سيسمح لنا هذا النوع من الانتقال بموازاة ذلك الانفتاح على موضوع الأنثوي"². إذ بمجرد ما يحصل اللقاء مع الآخر، يفتح سطح المحبة والخصوبة للذات سارا بنا نحو دواتنا بعيدا عن الموت، لتفتح المحبة بدورها على لانهائية الزمان. فالعلاقة بين البشر أي الصداقة والحب إذا أردنا التحديد بدقة. تتأسس حسب تعبير ليفيناس على ثنائية لا تقهر بين الكائنات: فالحب ليس علاقة تملك وخضوع ولا علاقة سلطة. ولا يلعب كل من الانصهار والاتحاد والاشترك والمعرفة في إطاره أي دور. ففي الحب لا يمكن معرفة الآخر ولا الإمساك بحقيقته. وإذا حاولنا امتلاك

1 Levinas (E) Ibid. p. 78

2 Bailhache (G). Le sujet chez Emmanuel Levinas fragilité et subjectivité, Paris PUF 1994 p. 136

المحسوب أو الاتحاد به فإننا سنعجل بالقضاء عليه، وتحديدًا بالقضاء على اختلافه الذي يشكل جوهر وجود ذاته. ففي العلاقة الايروتيكية يجب أن يظل الآخر غريبا.

يقول ليفيناس: بان العلاقة مع الآخر هي غياب الآخر ذاته. إن المحبة بالنسبة إليه فقد وضياع، مسافة وتفريق. صمت يوجد العشيقة خارج الحب، لان الحب هو فراغ ما لا يمكن الإمساك أو الظفر به. فالآخر سواء كان قريبا أو بعيدا فانه ينقد على الدوام كينونة الأنا انه ملاذ وملجئ مأوى خلاصه¹. لكن لا يوجد الايروس إذا لم نكن محكومون بإفراط في الجنون، أن نقيم بداخل السواد وغموض الايروس. تظهر لا نهائية الجناسة والإفراط فيها في عمق الايروس، وتتجلى تحديدا مع الطفل حيث ستتعرف على اكتمالها. من ثمة لن يحدث اللانهائية تمنع كل انغلاق قد يقود إلى تدمير الآخر أو إلى فقد أو ضياع الذات².

لا يتوجه الآخر نحو الحب إلا لحظة ضعفه وبؤسه، البؤس الذي يمثل ميزة غيرية الآخر نفسها. وتكمن حركة المحبة والملاسة **la caresse** والملاحظة القادرة وحدها على السمو بالجناسة لكونها لا تمثل قصدية الانكشاف وإنما يجب السير نحو اللامرئية. وإن تعبير المحبة هو أيضا معاناة، ولأن الآخر لا يستطيع قول كل شيء لكونه لا يمتلك سلطة القول، يجد نفسه يعيش مجاعة في التعبير. يسحب من صورته الخالصة والنقية الملاسة، وان هذه الأخيرة هي نزع واقتلاع للطهر والنقاء والعفة. لكن ما الذي ستكون عليه الذات مع هذه المغامرة المنحزة من طرف الملاسة؟ ما مصير الذات في علاقتها بالحبيب؟

لم يعد النور سببا لوجود الأنا وإنما الحنان **L'attendrissement** الشهوة التي تأبى الوقوف أمام الرغبة. وإنما هي الرغبة عينها، إنما ما يختفي ويتوارى، في الوقت الذي تكون فيه مكتشفة. ثمة عنف ينزل بجياء النظرات إلى الشهوة الماحنة لأنها باختصار تفضل ألا تكون مرئية إنما الممتنع عن الرؤية، صامتا لا تتكلم ووحده الضحك والسخرية بإمكانهما ترجمة كلام الشهوة التي تكتمل لا تكشف الشهوة

1 ليفيناس: إدموند جابيس أسئلة الكتابة أو حوار الفلسفة ب والأدب ترجمة إ-كثير والخطابي (ع) منشورات ما بعد الحداثة الطبعة الأولى 2003. ص 23-24.

2 Ibid p 139. Bailhach (G):

عن أنا عميق بعيدا عن الوجه، وإنما تكشف عن الطفل. لان الأنا موجود داخل الطفل الآخر.

إن الطفل هو الأنا القريب من الذات ولا يمكن فهم هذه الرؤية وفق القوانين وقواعد المنطق الصوري ذلك لان من غير الممكن إدراجها أو إدخالها ضمن المشروع المقولات لكونها لا تتوقف فقط على حضور وتمائل الأنا وإنما على اللقاء بالآخر باعتباره أنثوية¹.

دعم ليفيناس فكرة استرجاع صورة الآخر بواسطة الأنثوي، من خلال إقدامه على تحليل فكرة المنزل **maison** المنزل باعتباره مكان الراحة والاستراحة، المكان الذي تتواجد فيه الذات على الرغم الاعتراضات والضغطات الخارجية. لان الإنسان عندما يكون خارجا يصير عرضة للنور الشديد، الذي قد يعيق النظر والرؤية، وقد يفقد بصره. فالمنزل هو مكان الراحة والتمتع لكن مع ذلك هو المكان الذي من خلاله تسلل الغيرية.

سيتم استقبال الوجه بصورة أصيلة يداخل سماحة وجه الأنثوي، أو هي الموجود المنفصل القادر على استقباله وبفضله يسكن وبداخل إقامته يكتمل التفرير. إن سكنى وحميمة الإقامة بإمكانهما جعل تفريق الموجود البشري يفترض هكذا أولى التحليلات للآخر². تمثل هذه اللحظة الاستقبال الأول، وهو كذلك لأنه يحتفظ ببقائه بجانب الـ "عينه" وبجانب الانطولوجي. ولأن هذا الاستقبال لا يعكس في واقع الأمر إلا بدءا فستغدو المرأة هي المنزل. فالسكنى تعني أن يكون في منزلك شيء آخر غير ذاتك. إن العلاقة بالأرض كلقاء يحمل علاقة جذرية بين اللامس والملموس، فإذا كان المكان هو سلفا لقاء مع الغيرية هذا يعني أن الآخر غير بعيد وانه سيكون محتفظ به من قبل الأنثوي عبر استقباله بداخل المنزل. إن الأنثوي يرجع إذن إلى تجربة اللقاء كواحدة من أولى صور الغيرية، كرقعة وعذوبة في ذاتها. للمرأة القدرة على أن تجعل العالم مسكونا، وقابلا للسكنى. ولن تكون مجرد عشيقة وإنما المضيضة **l'hôte**. إنها الرقة التي تجعل العالم اقل صرامة وعنفا، تسمح بإبرام نوع من القرابة مع الأشياء. إن كل قرابة تفرض

Bailhach (G): Ibid p. 140 1

Levinas (E): Ibid p. 161 2

سلفاً أن تكون قد تم استقبالها وهذا ما يعني أنها متلقية بواسطة هذا ما يعكس صورة أنوثة السكنى.

المرأة هي حفاوة الاستقبال بداخل المنزل، وهي بالإضافة إلى ذلك مكان للسكنى والإقامة. هذا ما يجعلنا نؤكد أن المرأة تتموقع "بين بين" entre deux الأنثوي برزخي الدلالة، أما الهدوء والرقّة، أما الآخر حيث يكون الحضور خفية وغياباً¹. يتخطى الحضور بهدوء داخل الغياب، مم يجعلنا نقع في توتر القرار يصعب علينا الحسم ما إن كان غياباً أو حضوراً، إنها البينية. يمنح لنا الأنثوي إذاً ومن خلال المرأة وجهاً يسير ويتوجه بعيداً عن الوجه. فوجه الحبيب لا يعبر أبداً عن السر الذي يمتنع الأيروس التعبير عنه، فحضور لا - دلالية الوجه، أو الإحالة إلى الـ"لا-دلالية" هي حسب ليفيناس حدث أصلي يعكس الجمال الأنثوي. ومن ثم فإن المرأة تنجز اختزالاً اقتصادياً للوجه على ما يعكس غوايتها.

تدعون المرأة من هذا المنطلق إلى الكف عن النظر إلى الوجه الآخر، والجعل منه مجرد منبع رغباتنا الخاصة. إن رؤيتنا إلى الوجه الآخر هو بمثابة البحث عن الرغبة المفقودة. فالأيروس يمثل هنا حالة من التوافق بين اثنين من دون ثالث، ومن دون لغة يمنع عنا الاستماع أو الاصغاء إلى أصوات أخرى خارجية. وحدها الخصوبة بإمكانها الكشف عن الصورة الثالثة للأنثوي كتلك المتعلقة بصورة الأم، لأن الأم هي المرأة التي يتم تجاوزها في الآخر، وتحديدًا تجاوزها من طرف الطفل. أي في شخص آخر أو لنقل أيضاً تدفعنا الخصوبة في المستقبل نحو إكتشاف منفذ آخر للأنثوي. وهو ومنفذ الأم المتجاوزة داخل الآخر من خلال الطفل.

الخصوبة هي مستقبل الأنثوي لأنها تمنح إمكان الكشف عن هذا الآخر الذي يحصل أن يتم من خلاله مجاورة الأم لذاها فالأم تنخرط ذاتها عبر الطفولة ولا يعرف الأيروس تغييره الفائق إلا بواسطة الخصوبة باعتبارها قربان متعذر². فالأم تعاني من وتقاسي الأمرين فنحن نعلم أن لحظة الإنجاب التي تعرفها الأم هي بمثابة القطر معاناتها وآلامها بالتالي فهي تجسد الحساسية في إطلاقيتها محددة كسلبية جذرية كعرض شامل للآخر وعليه يقول ليفيناس المرأة هي الجسد المتألم الآخر أنها

Levinas (E): Ibid p. 299 1

Dubost: (M) Ibid p. 328 2

صورة الحساسية ويظهر ليفيناس هذا التنقل من الأنثوي إلى الأمومة من خلال عمله "بخلاف الذي يوجد أو بعيدا عن الماهية" إذ ستتوقف المرأة عن تمثيل ذاتها. لقد صارت جريحة تعاني لأجل الآخر.

وعليه إذا كانت المرأة منزل، يوحد السكنى والإقامة. فإن الأم والخصوبة يفتحان المستقبل والضرورة. وستبقى المضيفة تعكس وجه الثابت الخاص بطور قبل-الايثيقا. وتوجد العشيقة بدورها طور الايثيقا، في حين توجد الأم لنفسها المستقبل. ويغدو جسدها جسد المستقبل، وحده جسدها يكون الصيرورة. هذا ما يعكس في نظر جون لوك مايرون (Marion (J-L بقاء الأنثوي مقولة لا محددة، وغير مشخصة لدى ليفيناس.

لا يضعني الإيروسى يقول ماريون: "في علاقة مع المرأة أو الرجل وانما في علاقة مع إمكانية الطفل (الطفولة)¹. إن الأمر بالنسبة إلى ليفيناس لا يتوقف عند حدود تفكير ماهية المرأة، وإنما البحث عن الصور العينة **concrètes** لتمثل الآخر. فالأنثوي يحيلني باستمرار إلى الآخر بقدر ما أتموقع جنسيا.